

الدعاء في الشرائع السماوية



- ما هو الدعاء؟ الدعاء في اللغة: النداء، ودعاء العبد ربّه: أن يناديه لطلب أو لقربة. قال سبحانه: (وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ) (الكهف/ 28)، وقال: (أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ) (النمل/ 62). وفي هذه الآيات وغيرها ورد الدعاء بمعنى النداء، وكذا في الروايات، وليس معناه (الطلب) كما يتبادر إلى الأذهان اليوم. - الدعاء مخّ العبادة: قال تعالى: (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) (الذاريات/ 56). فمن أهم فصول العبادة الدعاء. يؤكد ذلك قوله سبحانه: (قُلْ مَا يَدْعُوا بِهِ كُفْرًا وَلَا دُْعَاؤُكُمْ) (الفرقان/ 77). ولعلّ الشريعة أقرّت الدعاء من أجل أن يرتبط العبد بربه، ويستمدّ منه حوائجه في كلّ الأحوال ويذكره دائماً. وهذا نوع من العبادة، والرسول (ص) يقول: "الدعاء مخّ العبادة". والقرآن الكريم سمّى الدعاء عبادة، حيث قال: (وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ) (غافر/ 60)، والعبادة في الآية هي الدعاء، كما ورد في تفسيرها عن رسول الله (ص) وعن الإمام زين العابدين (ع). عن زرارة عن الإمام الباقر (ع) قال: إنّ الله عزّ وجلّ يقول: (إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ)، قال: هو الدعاء، وأفضل العبادة الدعاء. قلت: (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ

حَلِيمٌ) (التوبة / 114)، قال: الأَوْاه هو الدعاء [1]. يقول الصادق (ع): قال النبي (ص):
أفضل عبادة أمتي بعد قراءة القرآن، الدعاء. ثمَّ قرأ: (وَ قَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ السَّادِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سِيدُوْ خُلُونِ
جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ)، أَلَا ترى أَنَّ الدعاء هو العبادة! - تعاليم في صحف موسى (ع): في الصحيفة الخامسة من صحف موسى الأربعين: يا بني آدم، ما خلقتكم لأستكثر بكم من
قِلَّة، ولا لأستأنس بكم من وحشة، ولا لأستعين بكم على أمر عجزتُ عنه، ولا لمنفعة ولا لدفع
مصيبة؛ بل خلقتكم لتعبدوني كثيراً، وتشكروني طويلاً، وتسبِّحوني بكرةً وأصيلاً. فلو اجتمع
أولُّكم وآخركم، وكبيرُكم وصغيركم، وإنسُكم وجنُّكم، وحيُّكم وميِّتكم، على طاعتِي؛ لم
يزددْ في ملكي مثقالُ ذرَّة، ولو اجتمعتم كذلك على معصيتي، لم يَنْقُصْ في ملكي مثقالُ
ذرَّة. وفي الصحيفة 29 من صحف موسى (ع)، يقول تبارك وتعالى: "يا بني آدم، إنما أنت ثلاثة
أقسام: فواحد لي، وواحد لك، وواحد بيني وبينك. فأَمَّا الذي لي، فروحك. وأما الذي لك،
فعملك. وأَمَّا الذي بيني وبينك، فملك الدعاء، ومنِّي الإجابة". - الدعاء سلاح
المؤمن: إذاً فالدعاء نوع من العبادة والارتباط بين العبد وربِّه، وهذا الارتباط له الأثر
الكبير في بثِّ روح الطمأنينة في نفس الإنسان. وأولئك المحرومون من نعمة هذه العبادة
فاقدون لسند عظيم وعونٍ كبير في مواجهة المشاكل، فهم كمن هو في الهيجا بغير سلاح. يقول
رسول الله (ص): "الدعاء سلاح المؤمن" [2]. ويقول أمير المؤمنين (ع): "الدعاء ترس
المؤمن" [3]. ويقول الإمام علي الرضا (ع) لأصحابه: "عليكم بسلاح الأنبياء. فقل: وما سلاح
الأنبياء؟ قال: الدعاء" [4]. وروي عن رسول الله (ص) قوله: "ألا أدلُّكم على سلاح ينجيكم من
عدوِّكم، ويَدْرُرُ رزقكم؟ قالوا: نعم. قال: تدعون بالليل والنهار، فإنَّ سلاح المؤمن
الدعاء" [5]. ويقول الإمام علي (ع): "ادفعوا أمواج البلاء بالدعاء" [6]. لو أَمَعَدَّ النظر
في هذه الأحاديث وأمثالها، لألفينا أَنَّ الدعاء له أثر نفسي عظيم، سواء أطلب الإنسان في
دعائه من الله شَيْئاً أم لم يطلب. وهذه حقيقة فهمها علماء النفس اليوم بوضوح، وكتبوا
حولها المقالات والبحوث القائمة على أساس الإحصائيات التي دلَّت هذه الإحصائيات على أَنَّ
الذين يعيشون عالم الدعاء والاتِّصال بالله قلَّما يعترهم اليأس والسأم، وقلَّما يُهزمون
أمام الحوادث المؤلمة، وقلَّما يفقدون الآمال بالمستقبل. هذه الحقيقة قرَّرها الإمام
الباقر (ع) في حديث مخاطباً به أحد أصحابه، قال: ألا أخبرك بما فيه شفاء من كلِّ داءٍ
حتى السَّام؟ قال: بلى. قال: الدعاء. - فضل الدعاء والحثُّ عليه: قال تعالى:
(وَ إِذَا سَأَلْتَهُ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذْ دَا
دَعَانِ فَلَا يَسْتَجِيبُوا لِي وَلَئِيْكُمْ مِّنْهُوا يَرْشُدُونَ) (البقرة/ 186). وقال النبي (ص): "عمل البرِّ كلّهُ: نصف العبادة، والدعاء نصف" [7]. وقال أمير

المؤمنين (ع) في وصيته لابنه الحسن (ع): "واعلم أن الذي بيده خزائن السماوات والأرض قد أذن لك في الدعاء، وتكفّل لك بالإجابة، وأمرك أن تسأله ليعطيك، وتسترحمه ليرحمك[8]..." وقال (ع): "ما كان إلا ليفتح على عبد باب الشكر ويغلق عنه باب الزيادة، ولا ليفتح على عبد الدعاء ويغلق عنه باب الإجابة"[9]. وقال الإمام الباقر (ع): "ما من شيء أحبّ إلى إلا من أن يُسأل"[10]. وفي الحديث القدسي، يقول تعالى: "يا موسى! سلني كل ما تحتاج إليه؛ حتى علف شاتك، وملح عجينك"[11]. وقال النبي (ص): "ليسأل أحدكم ربّه حاجته، حتى يسأله الملح، وحتى يسأله شمع نعله"[12]. - أفضل أوقات الدعاء: فإذا أراد الإنسان أن ينجو من مكائد الشيطان ويتخذ سبيل الرشd سبيلاً، عليه أن يكثر من ذكر الله تعالى، وأن يدعو الله للتخلص من كيد الشيطان ومكره، في مواطن يستجاب فيها الدعاء. فعن أبي عبد الله (ع): "يستجاب الدعاء في أربعة مواطن: في الوتر، وبعد الفجر، وبعد الظهر، وبعد المغرب. وقد قال (ص): وخير وقت دعوتكم إلا عز وجلّ فيه: الأسحار". وعن علي بن إبراهيم عن أبيه عن أبي عمير عن محمد بن أذينة قال: "سمعت أبا عبد الله (ع) يقول: إن في الليل لساعة ما يوافقها عبد مسلم ثم يصلّي ويدعو الله عز وجلّ إلا استجاب له في كلّ ليلة. قلت: أصلحك الله، وأي ساعة هي من الليل؟ قال: إذا مضى نصف الليل، وهو السدس الأوّل من أوّل النصف". - استجابة الدعاء: وقد أمر الله سبحانه عباده أن يدعوه تضرّعاً وخفية في كلّ وقت، ووعدهم بالإجابة، فقال: (ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً) (الأعراف/55). لكن لاستجابة الدعاء شروط ومتعلّقات. يقول النبي (ص): "لَتَأْمُرَنَّ بالمعروف ولتَنْهَوْنَ عن المنكر، أو لَيَسْلُطَنَّ الله شراركم على خياركم، فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم"[13]. وروي أن موسى (ع) رأى رجلاً يتضرّع تضرّعاً عظيماً، ويدعو رافعاً يديه ويبتهل، فأوحى الله تعالى إلى موسى (ع): لو فعل كذا وكذا لما استجيب دعاؤه؛ لأنّ في بطنه حراماً، وعلى ظهره حراماً، وفي بيته حراماً[14]. وروي في زبور داود (ع): يقول الله تعالى: "يا بن آدم، تسألني وأمنعك لعلمي بما ينفعك. ثمّ تلجّ عليّ بالمسألة فأعطيك ما سألت، فتستعين به على معصيتي، فأهمّ بهتك سترك، فتدعوني فأستر عليك. فكم من جميل أصنع معك! وكم من قبيح تصنع معي! يوشك أن أغضب عليك غضبة لا أرضى بعدها أبداً"[15]. وقال الإمام علي (ع) "لنوف البكالي: يا نوف، إن داود (ع) قام في مثل هذه الساعة من الليل، فقال: إنها ساعة لا يدعو فيها عد إلا استجيب له، إلا أن يكون عشاراً (هو صاحب الكوس الذي يأخذ أعشار المال)، أو عريفاً، أو شرطياً، أو صاحب عُرْطبة (وهي الطنبور)، أو صاحب كوبة، (وهي الطبل أو الدربة)"[16]. - الدعاء نبراس الأنبياء: كان الدعاء الملجأ الهامّ للأنبياء والأولياء في المواقف الصعبة والحالات الحرجة. وقد استعمله الأنبياء والصالحون منذ آدم (ع). وقد ذكر القرآن منه نماذج كثيرة. منها: قوله عن آدم

وحواء (ع): (قَالَ رَبِّ نَذَارًا ظَلَمْنَا أَزْهَقْنَا سَنَّا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ) (الأعراف/ 23). ومنها: قوله عن نوح (ع): (وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا) (نوح/ 26)، (وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ * وَنَصَرْنَا نَاَهُ مِنَ الْقَوَمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ) (الأنبياء/ 76-77). ومنها: قوله عن إبراهيم (ع): (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ) (إبراهيم/ 35)... إلى قوله: (رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ * رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْعَالَمِينَ يَوْمَ بَقَايَا يَوْمَ يَنْقُومُ الْحِسَابُ) (إبراهيم/ 40-41). ومنها: قوله عن أيوب (ع): (وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنْ رَبِّ مَسَّنِي الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ) (الأنبياء/ 83-84). ومنها: قوله عن يونس (ع): (وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاصِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنَجِّي الْمُؤْمِنِينَ) (الأنبياء/ 87-88). ومنها: قوله عن زكريا (ع): (كَهَيْعِ * ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا * إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا * قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا) (مريم/ 1-4)، (هَذَا لَكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ) (آل عمران/ 38)، (وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَاهُ لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ) (الأنبياء/ 89-90). - نماذج لبعض الأدعية: دعاء يوسف (ع) في الحب: "يا عدتي في شدتي، يا مؤنسي في وحشتي، يا راحم غربتي، يا كاشف كربتي، يا مجيب دعوتي، يا إلهي وإله آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب؛ ارحم صغري سني، وضعف ركبتني، وقلة حيلتي، يا حيّ يا قيوم، يا ذا الجلال والإكرام"[17]. دعاء النبي

(ص) يوم بدر، وهو من دعاء الحسين (ع) أيضاً قبيل استشهاده: "اللّهم أنت ثقتي في كلّ كرب، وأنت رجائي في كلّ شدة، وأنت لي في كلّ أمر نزل بي ثقة وعدة. كم من كرب يضعف عنه الفؤاد، وتقلّ فيه الحيلة، ويخذل فيه القريب، ويشمت به العدو، وتُعيني فيه الأمور؛ أنزلتُه بك وشكوته إليك، راغباً فيه إليك عمّن سواك، ففرّجته وكشفته عني وكفيتَنيه، فأنت ولي كلّ نعمة، وصاحب كلّ حاجة، ومنتهى كلّ رغبة"[18]. دعاء الصادق (ع) لمّا استدعاه لمنصور ليقتله: "حسبيّ الربّ" من المربوبين. حسبيّ الخالق من المخلوقين. حسبيّ الرازق من المرزوقين. حسبيّ ربّ العالمين. حسبيّ مَن هو حسبي. حسبي مَن لم يزل حسبي. حسبي لا إله إلا هو، عليه توكلتُ، وهو ربّ العرش العظيم. اللّهمّ احرسني بعينك التي لا تنام، واكفني بركنك الذي لا يرام... اللّهمّ إنّي أدرك بك في نحره، وأعوذ بك من شرّه"[19]. * كاتب وباحث إسلامي، ومدير كليّة الشريعة في الجامعة العالميّة للعلوم الإسلاميّة في لندن/ فرع سوريا الهوامش:

- [1]- الريشهري، محمّد، ميزان الحكمة 3: 245. [2]- الكُلَيْنِي، محمد بن يعقوب، الكافي 2: 468، باب: أنّ الدعاء سلاح المؤمن، الحديث: (1)، تصحيح وتعليق على أكبر غفاري، الطبعة الثالثة 1367ش، دار الكتب الإسلاميّة، طهران. [3]- المصدر نفسه، الحديث 4. [4]- المصدر نفسه، الحديث 5. [5]- المصدر نفسه، الحديث 3. [6]- نهج البلاغة: 433. [7]- المتّقِي الهندي، كنز العمال 2: 65. [8]- نهج البلاغة، الخطبة 93. [9]- نهج البلاغة، 4: 102. [10]- المجلسي، بحار الأنوار 7: 141. [11]- المصدر نفسه، 93: 303. [12]- كنز العمال 3: 65. [13]- الطوسي، الأمالي 2: 136. [14]- الراوندي، الدعوات: ص24. [15]- الحلّي، عدّة الداعي: ص198. [16]- نهج البلاغة 4: 24. [17]- الرازي، التفسير الكبير 32: 192. [18]- ابن طاووس، منهج الدعوات: ص87.

[19]- المصدر نفسه: ص226.

المصدر: رسالة الثقلين/ العدد 70 لسنة 2011م